التأمل الفلسفي في ما وراء المنهج –Méta Méthode

محاولة في منهج المنهج

د.مونيـــس بخضـــــرة
شعبة الفلسفة
كلية العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
جامعـــة تلمســـــان

يعد البحث في المنهج ، القضية الأولى في كل العلوم، سواء العلوم الطبيعية والتجريبية أو العلوم الاجتماعية والإنسانية. إذ ترتبط نتائج كل علم بالمنهجية المتبعة، ولذا نستطيع أن نؤكد أن كل علم له خلفية منهجية يتأكد بها، بما فيها التأمل الفلسفي المحض Méditation purement philosophique.

في هذه الدراسة، سنحاول أن نبين أهمية التأمل الفلسفي كنشاط عقلي صرف، ودوره في إنتاج المناهج وتحديد المناهج في تطور المعارف والعلوم، وإيضاح جملة الصعوبات التي تواجه عمل المناهج إيضاحا فلسفيا، والسبيل إلى تخطى نمط عقم مناهجنا المتداولة شكليا، نحو أفاق الخلق اللامحدودة. ومن هنا كان علينا أن نحدد طبيعة المنهجيات وسر تعددها، والذي يعود تاريخيا إلى اليونانيين، الذين أمنوا بوجود عالم ثابت يستطيع العقل بمعزل عن وسائل خارجة عنه أن يدرك كنه قوانينه، وأن يلم به من شتى جوانبه. أي أن المعرفة الموضوعية connaissance objective كانت ممكنة وأن الجوهر يبقى قابلا للتحديد العقلي. إذن فالموضوع هو شفاف أمام العقل(1).

وضع أفلاطونPlaton في هذا العصر مختلف مفاهيمه للديالكتيك ليبيّن كيفية ارتقاء إلى المعرفة الشاملة النهائية. وأرسطوAristote بمنطقه من أجل وضح حزمة قوانينه المنطقية الكفيلة في نظره على تفسير الوجود، كما أنه تساعد العقل على الوصول إلى الحقيقة. فهي تشكل آلة التي تعصم العقل من الوقوع في الخطأ والزلل مثلما عرفه، وهو ليس ضربا فلسفيا فقط بل يشمل أيضا جميع العلوم الأخرى

مهما كانت مواضيعها. وهذا كله يوحي بمدى تجذّر فكرة وجود حقيقة مطلقة شاملة يستشفها العقل الإغريقي ويحيط بها من شتى جوانبها.

والتأمل ليس بمنهج فلسفي واحد أو بمنهج واضح المعالم كغيره من المناهج، إذ نجده في بعض الفلسفات خاصة الفلسفات القديمة تعتمده كمنهج وحيد في المعرفة وللحقيقة، وبعض الفلسفات من رفضته معتبرة إياه ضربا من الوهم. فهذا ديكارتDescartes مع بداية العصر الحديث ينتقد كل الفلسفات التأملية philosophies contemplatives في كتابه الرائد" مقال في المنهج". ليعود ويطلق على طريقته في الشك المنهجي اسم تأملات في الفلسفة الأولىMéditations sur la philosophie première ، وهوسرلHusserl الذي حاول جاهدا أن يجعل من الفلسفة علما صارما يطلق على أحد أهم كتبه اسم " تأملات ديكارتيةMéditations cartésiennes ". وكأن التأمل قدر الفلسفة الذي لا نستطيع الإفلات منه، رغم تقدم العلوم وتنوع المناهج(2).

وإذا بحثنا في تاريخية التأمل، لظهر أنه لم يكن حكرا على مجتمع ما دون الأخر، أو حضارة دون سواها، ولا هو بوقف على التجربة الفلسفية وحدها، بل أنه يكاد يكون المنهج غير المعلن للفكر البشري على اتساع رقعته، والتجربة الإنسانية في شتى ميادينها الفنية والأدبية والدينية. فمن النيرفانا البوذية Nirvana bouddhisme إلى الوجد الصوفي، ثم إلى تجربة نشوة الخلق الفني، وإلى سعادة اتصال المتوحّد، إلى *اكتشاف الكوجيتو الأغسطيني والديكارتي، إلى الديالكتيك الهيجلي ثم إلى سماع نداء* الأنا العميقة، يبرز التأمل méditation وكأنه الوسيلة الوحيدة التي بقت الموضوعة تحت تصرف الإنسان ليحاول بها معرفة معنى وجوده.

فكان لا بد من توضيح توليفته التاريخية في عالم المعرفة، قبل حصر الموضوع في التأمل كمنهج فلسفي مما سيتيح لنا الإحاطة بهذا المفهوم الواسع. نقطة انطلاقنا ستكون إذن من محاولة التأمل الفلسفي ووظائفه المنهجية، ثم محاولة شرح أبعاده المعرفية والإبستيمية.

طبيعة التأمل الفلسفي La nature de la méditation philosophique :

لقد أطلق اليونانيون منذ القدم على التأمل لفظ" ثيوريا thiourée "، للتأكيد أن التأمل هو نظر عقلي محض لموضوعات لا يمكن أن تقع تحت مراقبة الحواس، كالجواهر المفارقة والمبادئ الأولى، وبهذا المعنى قول أرسطو Aristote في كتابه " ما بعد الطبيعة"، بأن الفلسفة الأولى Philosophie première هي العلم التأملي– النظر المحض – للعلل الأولى وللمبادئ. فأرسطو الذي شدد على دور

الحواس في تكوين معارفنا، كان يدرك بأن التفسير الطبيعي القائم على تحليل الواقع الحسي صالح لإدراك العلة المباشرة للتغيير القائم في عالم الكون والفساد، غير أن الفضول البشري لا يكتفي بهذا القدر، بل إلى البحث عن العلة الأولى التي كانت وراء كل العلل المباشرة، وهنا ينتفي دور الحواس، إذ أنها تقف عاجزة على أن تزودنا بما نطمح إليه. ويأتي دور التأمل، وهو دور النظر العقلي في مواضيع لا يمكن أن تخضع للحواس.

فحين عرف أرسطو الفلسفة – أو سميت من بعده الميتافيزيقا– بأنها العلم النظري التأملي، فقد كان ينطلق من عصر يؤمن بوجود طبيعة ثابتة يجب احترامها والعمل بقوانينها، وبأن العقل قادر عن طريق التأمل – النظر المحض – على إدراك ماهية هذه الطبيعة، دون سعيه إلى أي منفعة مادية تذكر من ذلك، وبالتالي فإن الفلسفة – كنظر عقلي– لا تبدأ إلا بعد أن تكون كل الحاجات الضرورية للإنسان قد أشبعت(3). العقل هنا كنظر وتأمل لا يهدف إلى شيء خارج المعرفة ذاتها، خارج طموح الإنسان لإشباع تعطشه للعلم مدفوعا بالدهشة التي تعتريه أمام ظواهر الطبيعةphénomènes de la nature (4).

والتأمل هنا لا علاقة له بالنظرية بمفهومها العلمي، لأن النظرية العلمية بحاجة إلى براهين تبررها، أو إلى تجربة علمية تقيم البرهان على صحتها، في حين أن التأمل المحض لا يمكن أن يمر بالتجربة العلمية للبرهان على صحة ما يؤكد.

التأمل، يتناول إذن موضوعات لا تخضع للحواس، وبالتالي فإنه يتعارض مع التجربة العلمية، ونحن نجد صدى لما قاله أرسطو لدى كانط Kant في كتابه " نقد العقل الخالص Critique de la raison pure "، و لكن في سياق مختلف تماما. إذ كان غرض كانط هو البرهنة على أن العقل المحض لا يصل في موضوعات الفلسفة المحضة إلا إلى المتعارضات.

يقول كانط بأن المعرفة النظرية connaissances théoriques هي معرفة تأملية كلما تناولت موضوعا أو مفاهيم تتعلق بموضوع لا يمكن لأي تتجربة أن تتوصل إليها، بمعنى أن التأمل هو ما يخرج كلية عن التجربة ولا يمكن أن يكون ثمرة لها(5).

غير أن مثل هذا القول قد يحمل إبهاما أو غموضا، إذ ما الذي يميز في هذه الحال التأمل عن التفكير بوجه عام، لأن التفكير أيضا يتناول مواضيع غير قابلة للخضوع لامتحان التجربة. لا بد من القول بأن التفكير هو تركيز الذهن حول موضوع معين وتفسيره، عن طريق الإحاطة بميزاته وأنواعه، في حين أن التأمل يحاول أن يغوص إلى أعماقه ليستجلي كنهه الأخير، فهو ليس الشرح الذي يحاول الإحاطة

بالموضوع من شتى جوانبه، بل هو التأويل الذي لا يرضى أن يتوقف إلا عند إظهار المعنى الخفي والأعمق للغرض.

يعد أفلاطون في الجمهورية république خير من ميز بين مستوى التفكير ومستوى التأمل. فالجدل القائم على الفرضيات ينتقل صاعدا من الفرضيات الأولى نحو الفرضيات الأخيرة، التي لا فرضية وراءها. فالتفكير الدنيوي يظهر المستوى الأول من الفرضيات عن طريق المناقشة والحوار. إذ يفترض أن هناك وراء الجمال الحسي جمالا في ذاته ، ثم ينتقل إلى النتائج التي تترتب على مثل هذه الفرضية ليتوصل إلى فرضية ثانية أبعد منها وتشرحها.

الفرضية الأولى تتحدد في تفسير وجود العالم الحسيmonde sensoriel ، والفرضية الثانية تتحدد بتفسير وجود العالم بذاته(أصل العالم)، وهو غاية التفكير كله، غير أن هذا الأخير في نظر أفلاطون يظل عاجزا عن إيجاد الفرضية النهائية، تلك التي تفسر ولا تفسر بما أنها تعطي المعنى الأخير لكل الوجود. وهي الفكرة التي تأخذ شكل خير كما يزعم أفلاطون، الخير المطلق الذي نتجت عنه كل الموجودات، وهذا الخير الأخير القائم على رأس الديالكتيك الصاعد، والذي يشكل المبدأ الأول للوجود، وهو الغاية الأخيرة للتأمل، أي ما يسميه أفلاطون نويزس NOESIS أي ثمرة الحدس المباشر الذي يتخطى مجرد التفكير حتى يدرك الماهية الأخيرة للوجود والعلة الأولى للكون(6).

بهذا المعنى نستطيع أن نقول أيضا أن كل فلسفة هيجل هي فلسفة تأملية Spéculative ، فيما حاول كانط أن يغلقه إلى الأبد، فتحه هيجل من جديد أمام التأمل في كتابه علم المنطقlogique . فالمنطق الهيجلي لا علاقة له إطلاقا بالمنطق التقليدي القائم على الاستنتاج والقياس و الاستقراء، بل هو منطق يحاول شرح طبيعة تجسد الأشياء، والنفاذ في أعماق سيرورة البشرية وتجليات الروح العامة في التاريخ على الأقل هذا ما ناقشه في نصه الرائد"فينومينولوجيا الروح"(7) ، ومن هنا كانت رؤية المنطق الهيجلي محصورة في كل ما هو واقع، وفي كيفية تحول الأفكار المجردة إلى موجودات كمية وكيفية عن طريق مثالب الديالكتيك الوجودية، الذي هو كله أحد مكاسب التأمل البشري. وإذا تمعن في عمل ، سنجده لا يختلف كثيرا عن عمل الحدس المباشر للمعنى الأخير للواقع منه إلى أي طريقة من الطرق المنطقية المعروفة، والتي كان هيجل يعتبرها مسؤولة عن انحطاط الفلسفة dégénérescence de la philosophie وتدهورها(8).

فإذا كان عرضنا هذا يظهر أن طبيعة التأمل تتعارض مع كل ما هو أمبريقي، أي أنه لا يتمشى مع ما هو قابل للمرور عبر امتحان التجربة، فإنه كذلك يتعارض مع العملي والممارسات الفعلية خاصة منها مواضيع القيم(براكسيس Praxis) ، لأن القيم تحتاج إلى فضاء اجتماعي تمارس فيه هذه القيم و حتى تحضى بشكل الحكم القيمي، في حين أن التأمل لا يحتاج إلى وجود مثل هذه العلاقات بين الأفراد داخل وعاء المجتمع، فهو إذن موقف يدير ظهره إلى ضجيج الحياة الاجتماعية وتعقيداتها. وكذلك فإن التأمل يتعارض مع العملي على الصعيد العملي بمعنى لأنه يبغي علما من أجل العلم، ولا يلتفت إلى النافع أي إلى ما يريح الناس في حياتهم اليومية.

التأمل والعمل La méditation et le travail :

يقف التأمل موقف مجردا من الوجود، بمعنى أنه لا يشارك في نسيج العلاقات المتشابكة التي تتشكل منها عناصر الوجود، سواء داخل الطبيعة أو داخل الحياة الاجتماعية، في الوقت الذي يتخذ فيه من الوجود ميدانا للنظر العقلي المحض، بمعنى أنه لا يتعامل مع عناصر الوجود معاملة ظاهراتية التي بها يتصل الإنسان مع وجوده الفعلي، والعمل على السيطرة وتحكم فيها من أجل صالحه العام، لأن التأمل يحدث في عزلة وجودية ذاتية.

في العصر الإغريقي ميز أرسطو بين الفضيلة الأخلاقية التي تتجه نحو العمل وتشارك في إقامة علاقات طيبة بين الناس وبين الفضيلة التأملية التي تبعد الفيلسوف عن الناس وبين الفضيلة التأمل، الذي يبعد الفيلسوف عن الناس وتجعله أكثر حرية واستقلالا، وكأنه فكر لا هم له إلا أن يفكر في ذاته.

ونفس المجرى اتبعه توما الإكويني Thomas d'Aquin في فلسفته حول علاقة التأمل بما هو عملي، في القسم الثاني من مجموعته اللاهوتية، المخصص لعلاقة التأمل بالعمل والعقل، فكان ما كتبه هو مقارنة بين التأمل والعمل .

التأمل في نظر الإكويني هو الذي يشكل الفضيلة الرئيسة في النظام الأخلاقي، الذي لا تظهر فعالياته إلا في تداوله في الحياة العملية وفي الممارسات النشطة الفعالة في التعامل مع الناس، وهو في الأصل ينشأ من الذاكرة والتجارب المكتسبة في الميدان، والتأمل أيضا يعني التيقظ والتنبه لكل المتغيرات الطارئة مستقبلا، وتوقع الأشياء قبل حدوثها واستنتاج الأفكار والحواصل من بعضها البعض في شتى الجوانب والميادين، وهو بسبب حيازته لجميع هذه الخصائص يصبح نافعا في الحياة العملية للناس، إذ أنه قادر

على إسداء النصيحة الصحيحة وإصدار الأحكام الصائبة والعادلة على الأفعال الخاصة والقدرة على التمييز(9).

رغم حيازة التأمل على كل هذه المزايا، إلا أنها لا تجعله الفضيلة الأولى وأسماها، وهذا لأن التأمل الصحيح والخالص هو ناتج عن حكمة رشيدة. فالتأمل هو ابن الحكمة يخضع لها في كل الأحوال والظروف، وهو الذي يمهد الطريق أمام الحكمة، فهو خادمها المطيع، لأن التأمل يختص بالأمور الإنسانية في حين أن الحكمة تنظر في موضوع السعادة ذاته وهو المعقول الأسمى.

<u>التأمل و الوجود:</u>

هناك موقفان بارزان في تاريخ المعرفة البشرية اتجاه الوجود، موقف يعتمد على قوة التأمل في حيثياته، فيرى فيها جملة الإشارات والرموز والدلالات ولما هو أبعد منها، وموقف لا يرى فيها سوى مجموعة من الظواهر التي يجب البحث عن عللها المباشرة، أي أنه يعتبره مجرد آلة ميكانيكية كبيرة تتحرك وتخضع لقوانين حتمية، ومهمة العقل هنا هو اكتشاف واستخراج هذه القوانين، بل يذهب إلى أبعد من هذا ، وبضبط إلى حد الدعوة إلى التحكم في الطبيعة وتسخيرها للمنفعة المادية للإنسان.

بينما في القديم كان كثير من فلاسفة اليونان الكبار من نادى بضرورة احترام الوجود وإتباع أحكامه، فحاولوا أن يكتشفوا المبادئ الأولى التي تحدده، وهو عمل من اختصاص الفلاسفة فقط دون سواهم، الذين كانوا بشكل عام يحتقرون الحياة المادية.

لقد ظلت سلطة التأمل مسيطرة على مجرى التفكير البشري، الذي استمر مع العصور الوسطي في ظل هيمنة التعاليم الكنسية، وسيادة اللاهوت وأسبقيته على الفلسفة التي جعلوها خادمة للاهوت وخاضعة له، ويمكننا أن نعتبر مؤلف القديس بونافونتورا Saint-Bonaventure المتوفي سنة 1274 المعنون ب: مسار الفكر نحو الله Chemin de pensée vers Dieu ، خير ممثل لهذا الموقف. حيث أنه ظل يتجاهل الأفكار الجديدة التي بدأت تظهر في عصره، ورغم ذلك بقي أمينا للإرث المسيحي ولتعاليم القديس أوغسطين Saint-Augustin ، وفي ما بحث فيه هذا القديس هو ضرورة وقوفنا على إعجاز عناصر الطبيعة التي تحيل إلى عظمة خالقها، فتبدوا لنا الطبيعة كلها كالآثار المتبقية من الله، وكما تدل الآثار على الشعوب التي مرت في الماضي، كذلك يدل العالم الحسي بكل المخلوقات والموجودات بعين من محبة الإيمان، وحينما نتأمل هذه الآثار ينتابنا نوعا من الدهشة والتعجب، وتنكشف أمامنا كل البراهين التي تؤكد الحقيقة الإلهية: لأن كل ما في الوجود من حركة ونظام وقياس وجمال ينطق بهذه البراهين، ثم

تعود الروح إلى ذاتها لتتعمق ما رأته في الطبيعة، فتبدو لها كل الموجودات والأشياء الحسية كظل الله. في حين أن نور الروح يظل يضيء الطبيعة بضوء جديد نستشف من خلاله المعنى الكامن وراء الظواهر.

يعد فرانسيس بيكونFrancis Bacon أول من استعمل في الغرب مفهوم العلم التجريبي La science expérimentale والاختباري، ودافع عنه واعتبره أهم العلوم على الإطلاق، مما قاده إلى الوقوف على الطبيعة موقف الذي يسعى إلى رفع أسرارها، حتى يتمكن من إنتاج آلات جديدة تخدم الإنسان. مما جعل بيكون يدعو إلى ضرورة إنشاء المخابر التي تجرى فيها التجارب في شتى أصقاع الغرب، لأن العلم التجريبي في نظره هو الذي يوصلنا إلى اليقين وبالتالي إلى الحقيقة فيما يخص الظواهر الطبيعة. فالعقل لا يستكين إلا إذا أكدت التجربة مزاعمه المجردة. العلم التجريبي الذي يجب أن نطبقه على الطبيعة يفوق كل العلوم لأنه طريق اليقين، وهو يبدأ حين تنتهي العلوم، بالإضافة لأنه يملك القوة الكافية التي تمكنه من معرفة أسرار الطبيعة واكتشاف المستقبل والتوصل إلى التحكم في الطبيعة(10).

ويعنى هذا كله أن بيكون سخّر فلسفته كلها في معرفة الطبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان، دون الاكتفاء بالتحليق في عالم التأملات، لأن أهمية التجربة تظهر في الاكتشافات الجديدة التي نتوصل إليها من خلال التحكم في قوى الطبيعة، ثم جاء ديكارت صاحب مقال في المنهج، الذي أراد به جعل العلم يخدم الإنسان في جميع نواحيه، حتى يصبح الإنسان سيدا على الطبيعة ومالكا لها، تخدم أغراضه.

فالموقف التأمل من الوجود لم يتوقف فقط على فلاسفة عصر حديث، وإنما شمل أيضا فيزيائي العصر، واعتماد على الثورة الميكانيكية مع غاليلي Galilei في تفسير الطبيعة، التي تمكنت من إزالة كل الصور التقديسية التي تراكمت على العقل الغربي، ثم جاء فلاسفة الألمان الرومانسيين ، وعلى رأسهم شلينغ Schilling ، يتساءلون حول فلسفة الطبيعة، وهمهم ليس تفسير الطبيعة ولا تحكم فيها بقدر ما هو البحث عن روح العالم، التي تفسر المنطق الأخير للعالم والمعنى الذي تجري وراءه الطبيعة، فكانوا في صلب الحدث التأملي كما كان شائعا في اليونان.

يمكن القول أن التأمل، **كمنهج فلسفي يبقى قابعا وراء كل منهج علمي واضع المعالم** – فهو بمثابة **منهج المناهج**– يتستر وراء كل فرضية علمية سابقة، ووراء كل فعل معرفي ما، فهو الشرط الأساسي لكل محاولة علمية ممكنة، حيث يظهر التأمل في هذه الوظائف الإبستيمة في اعتماده في الغوص في أعماق البحث العلمي، إما عن طريق الصعود قدما، إلى اكتشاف الحقيقة الأخيرة للوجود والمعنى النهائي للحياة.

هاتان العمليتان تفترضان بدورهما وجود حدس خارق لدى الإنسان، بمعنى أن هذا الأخير قادر على إدراك مباشر، في لحظة متميزة، لكنه الحقيقة، غير أن هذا الحدس يفترض بدوره وجود إمكانات معينة غير متوفرة، في كثير من الأحيان للغالبية العظمى من الناس، وحتى وإن توفرت تظل راكدة لا يعيرها الناس أي اهتمام، وتوفر إمكانات التي لا بد من تدبيرها بطريقة خاصة تؤمن بلوغ الهدف، وعندما يفترض التأمل نوعا من عملية ترويض للذات.

لقد أكد أفلاطون سالفا، أن كل معرفة هي مجرد تذكر، ومفترضا وجود تناسق بين الإنسان وعالم المثل، وهذا ما يقوله في أسطورة أصل النفس في حواره مع فيدروس، حين يقارن النفس بمركبة يجرها حصانان، وتشارك في السباق العلوي للوصول إلى الخير المطلق والتمتع برؤيته. أثناء هذا السباق بعض النفوس رأت أكثر من غيرها، والنفس التي شاهدت وتمتعت بأكبر قسط من الخير المطلق هي نفس الفيلسوف ، ومن هنا فإن الفيلسوف قادر أكثر من غيره على التأمل واكتشاف الهدف الأخير للحياة، غير أن مثل هذا الهدف لا يدرك بالتفكير المحض، بل بحدس للماهيات.

هناك إذن إمكانية حدس عالم المثل، ومثل هذه الإمكانية التي يبلغها التأمل متوفرة للفيلسوف أكثر من غيره، والفيلسوف يخضع نفسه لمبادئ صارمة إذ عليه أن يصبح سيد نفسه في عملية تطهير من كل شهوات الجسد وأهوائه ليتمكن من الانصراف في التأمل، دون عائق يأتيه من العالم الحسي.

في الكتاب العاشر من الأخلاق إلى نيقاماخوس، يقول أرسطوAristote بأن الحد الأخير للسعادة هو التأمل، ومثل هذا التأمل هو الابنة البكر للحكمة، غير أن مثل هذه السعادة ليست في متناول اليد، فهي تفترض من جهة أن في ذواتنا يكمن مبدأ إلهي أبعد من النفس الناطقة(لغوسLogos)، هذا المبدأ من العقل الصرف(نوسNous)، ومن جهة ثانية فإن مثل هذه السعادة تتطلب منا أن ندير ظهرنا كلية للعالم العملي، ليصبح نشاطنا منحصرا في التفكير والتأمل في سكينة وراحة مقلدين حياة الآلهة، ونحن ما زلنا نعيش في عالم الكون والفساد.

" في داخل الإنسان تكمن الحقيقة"، هكذا قال القديس أوغسطينSaint-Augustin ، وهذا يعني أن الغوص إلى أعماق النفس يجعلنا نصل إلى أعماق الحقيقة، فحين ننزل إلى داخل ذواتنا نشعر بأننا مجذبون نحو شيء أسمى منا، هناك دوما شوق نحو هدف أسمى وأقوى منا، وهذا الشوق لا يتوقف إلا حين يستريح القلب عند الله، وحين يعرف الإنسان ذلك ينسى نفسه و ينقطع لله. هناك إذن خروج من

الذات وتفوق على الذات بتعميق الذات نفسها، الحقيقة الأخيرة التي تكمن في داخلنا ونكتشفها بالغوص في أعمق أعماقنا هي الله وإرادة العيش بنعمته.

من هنا نكتشف ضرورة الإيمان بأنه وحده يجعلنا نعيش في كنف النعمة الإلهية، والإيمان يسير جنبا إلى جنب مع العقل" الإيمان يبحث والعقل يجد"، والإيمان أيضا يضيء الطريق أمام العقل والنعمة تحررنا من الشر فلا يعود له السيطرة علينا.

التأمل عند أوغسطين يفترض إذن انقطاعا كليا عن العالم الخارجي لنسمع به النداء الخارج من أعماق أعماقنا. غير أفعالنا مهما كانت قيمتها لا توصلنا إلى السعادة الأخيرة، ولا إلى الراحة القلبية الدائمة، بل لا بد للعقل من التسليم بالإيمان لتأتينا النعمة الإلهية هبة مجانية تقينا من الوقوع في الشر لنعيش في الخير الدائم ولنشكل مدينة الله في الأرض، في عالم تتحكم فيه الأهواء والأنانية.

لقد تميزت فلسفة هيجل بطابعها النسقي، غير أن هيجل أراد من نسقه هذا أن يجد المعنى الخفي لصنع الإنسان من خلال تاريخه المأساوي.

إن مهمة الفلسفة التأملية الهيجلية، هي إدراك التعينات التي تطرأ على الروح في صيرورتها المستمرة وتجلياتها عبر مختلف الحقب، غير أن المنهجية التي يتبعها العقل في ظهوره و تحقيق ذاته، و هي الديالكتيك الثلاثي(11) ، فلا يمكن أن تكون صحيحة إلا إذا افترضنا سابقا بأن عمل الإنسان وتاريخه، يسعى إلى تحقيق هدف أخير. ولو كان تاريخ البشرية مجرد فوضى لما استطاع التأمل الفلسفي الغوص إلى باطنه. بهذا المعنى يجب أن نفهم تأكيد هيجل حينما قال بأن " كل ما هو واقعي عقلاني وكل ما هو عقلاني فهو واقعي"، وذلك أن كل واقع هو حصيلة صنع البشر، وصنع البشر أي مجمل تاريخ البشرية يتبع طريقا عقلانيا، والفلسفة التأملية تلقت مهمة إبراز هذه العقلانية التي تظهر إلا للنظر العقلي الثاقب.

هوامـــــش:

(1) – مونيس بخضرة، فينومينولوجية المعرفة، دراسة في فلسفة الظاهر الهيجلية، دار عالم الكتاب الحديث، عمان الأردن ط1 2013 ص205.

(2)– جورجي زيناتي: رحلات داخل الفلسفة الغربية، دار المنتخب العربي للدراسات و النشر والتوزيع، د ط، د ت ص 85.

(3)– مونيس بخضرة: تاريخ الوعي" مقاربات فلسفية من أجل ارتقاء الوعي بالواقع"، مؤسسة محمد بن راشد آل المكتوم، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، ط1 2009 بيروت ص 27.

(4)– أرسطو: الفيزياء، (السماع الطبيعي)، ترجمة عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، 1998 ص 09.

(5)– جمال محمد أحمد سليمان: امانويل كانط (أنطولوجيا الوجود)، دار التنوير ، للطباعة والنشر و التوزيع، 2009 ص 14.

(6)– أفلاطون: جمهورية، ترجمة حنا الخباز، دار القلم للطباعة و النشر و التوزيع بيروت ص 194.

(7)– مونيس بخضرة، فينومينولوجيا المعرفة "دراسة في فلسفة الظاهر الهيجلية، المرجع السابق ص 45.

(8)– مونيس بخضرة : تاريخ الوعي ، المرجع السابق ص 228.

(9)– جورج زيناتي: رحلات داخل الفلسفة الغربية، المرجع السابق ص 89.

(10) – كريم متى: الفلسفة الحديثة، عرض نقدي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط2ليبيا،200 ص 40.

(11)– مونيس بخضرة، تأملات فلسفي في رسم بعض إشكالات العصر" العنف– التسامح – المعرفة" دار عالم الكتاب الحديث عمان، ط1 2013 ، ص98.